المدرسة الجزائرية

في مستهل الألفية الثالثة *

آفاق وتحديات

محمد العربي ولد خليفة
أستاذ جامعي ووزير سابق
أستاذ مشارك بمعهد تيقصرين (سابقا)

1 بعض دلالات الحصيلة ومؤشرات المستقبل
2 المتغيرات البعيدة المدى
3 تحديات من داخل منظومة التربية والتكوين
4 تحديات من خارج المنظومة
5 خلاصة

نظام التربية والتكوين هو قاطرة المجتمع وبوصلة المستقبل ، إذا انطلقنا من هذه المسلمة التي ثبّت صحتها في كل الأزمنة والأمكنة ، فإنه من الطبيعي أن نستشرف آفاق نظامنا التربوي على ضوء التغيرات المتلاحقة في بلادنا ، وفي العالم من حولنا ، وهو عالم يتحول بسرعة إلى قرية كونية (Village Planetaire) مفتوحة تنقسم إلى ما يسمى دول القلب (Corce States) المسيطرة ودول الأطراف (Perifery States) المهمشة .

تفرض علينا تلك التحولات المتسارعة مواجهة تحديات كبيرة وتحضير الإجابة على إشكاليات قديمة العهد وصعبة يأتي في مقدمتها كسر حلقة التخلف المفرغة وتأسيس التقدم والتحديث ابتداء بالمدرسة و زرعه في النسيج الاجتماعي الثقافي للأمة من أجل تأهيل الأجيال القادمة لدخول سباق لا يرحم سلاحه هو العلم والتكنولوجيا ، والتفوق في إنتاج الثروة والخبرة والفنون والآداب .

1 بعض دلالات الحصيلة ومؤشرات المستقبل:

قبل تقديم عناصر أولية من القائمة الطويلة للتحديات الداخلية والخارجية التي تنتظر منظومة التربية والتكوين ، بل الجزائر كلها في مستهل الألفية الثالثة ، قد يكون من المفيد الإشارة بإيجاز إلى عدد من المسائل

* ألقيت هذه المحاضرة في الندوة الوطنية حول المبادئ العامة للسياسة التربوية الجديدة وإصلاح التعليم الأساسي المنظمة من قبل المجلس الأعلى للتربية أيام 28 - 29 - 30 جوان 1988 بقصر الأمم نادي الصنوبر

المتعلقة بالاستشراف والحصيلة في صورة ملاحظات على النحو التالي :

1 يقترن الاستشراف في مداه الزمني بالتخطيط سواء كان قطاعيا (Sectorielle) أو على المستوى الوطني ويتطلب توفر معلومات تفصيلية دقيقة ومنظمة في بنوك المعطيات ، ومتابعة للتطورات والتنبؤ بها عن طريق مراكز البحث والدراسات الإستراتيجية التي تضع السيناريوهات الاسقاطية Scenrios) (Progectionels ، وتختبر فرضياتها على ضوء المستجدات المحلية والدولية ، وتكشف الدراسات المستقبلية بوجه عام عن خوف الإنسان من الغد المجهول ورغبته الدائمة في توسيع مساحة المعلوم ، ويسمى غاستون باشلار هذه الرغبة بجدلية الوقت (Dialectique du temps ، وهي التي تضع الإنسان وأفعاله داخل الزمان ، وتجعل الزمان غير موجود خارج الإنسان .

2 تزايدت مع اقتراب نهاية القرن وبداية الألفية الثالثة الدراسات المستقبلية عن مصير الإنسان والكون والأنظمة السياسية والاجتماعية يقدم بعضها وجهة نظر علمية أو يعرض رسالة إيديولوجية ، وبعضها الآخر مجرد شعوذة تجارية أو دينية ، فقد ظهر في العقدين الأخيرين عدد من الدراسات تحمل كلها اسم نهاية نذكر منها على سبيل المثال : نهاية الإيديولوجية " لدانييل بل " (D.Bell) ونهاية التاريخ لـ ف . فوكوياما (F.fukuyama) ونهاية الديمقراطية لقيهينو (J.M.Gueheno) كما تنبأ بعض علماء الاجتماع والاقتصاد والفلاسفة بنهاية الدولة الأمة ، وفي سنة 1970 نشر (هال ليندساي) كتابا سماه " حريق كوكب الأرض " ، تنبأ فيه بفناء العالم سنوات قليلة قبل نهاية القرن فباع منه 28 مليون نسخة وحصل على مقعد مليونير في وول ستريت .

كما قام بعض المشعوذين بترويج خرافات بلباس ديني ، سموها الكارثة الأخروية أو اقتراب يوم القيامة ، أدت إلى الانتحار الجماعي كما حدث لجماعة معبد الشمس وطائفة أبواب الجنة .

3 إن استطلاع المستقبل لا علاقة له بالتفاؤل والتشاؤم ، أو البحث عن الفال من نوع حظك اليوم ، فهو يتضمن رؤية تاريخية مستقبلية في آن واحد ، تنبع من التجربة التاريخية للأمة وتنطلق من المعطيات الموضوعية للواقع وليس من الحتميات الجامدة وهي كل المقاربات والنظريات التي ترتكز على عامل واحد ، وقد انتهت . ، كلها إلى تجريدات طوباوية (utopiques) لم تصمد طويلا وأصبحت جزءا من اللاواقع التاريخي ، كما حدث للنازية التي زعمت أن الرايخ سيعمر أكثر من ألف عام .

4 بالإضافة إلى التحفظات السابقة ، فإن الدراسات المستقبلية هي فرع حديث النشأة يعود إلى مجال أوسع هو دراسة النظم ، وقد يستعمل أحيانا للمتاجرة بالتوقعات (Predict on business) أو لأغراض الضبط الاجتماعي أو التعرف على الخصم ، كما أن هناك كثيرا من الأحداث الهامة التي وقعت في ربع القرن الماضي لم يتنبأ بها أحد نذكر منها على وجه الخصوص الانهيار المفاجئ للاتحاد السوفياتي .

5 لكي يكون للاستشراف في ميدان التربية والتكوين مصداقية ينبغي أن يعتمد على تشخيص دوري ، صارم ودقيق لأداء المدرسة الجزائرية ومردودها من المعارف والمهارات ، وان يستنطق دلالات الحصيلة بنزاهة وموضوعية من أجل التقدم خطوة إلى الأمام ، وجعل مضامين التكوين أكثر راهنية (Actualises) و المؤطرين والمناهج أقرب إلى النجاعة والفاعلية ، فالمستقبل هو جهد يومي لكل الأجيال يؤدي إلى تراكم التجربة والخبرة ، يضاف إليهما ما يفعله جيلنا نحن الآن ، وهو ما عبر عنه ابن خلدون في مقدمته الشهيرة بقوله : إن إدارة الملك والسياسة تحتاج إلى دربة ودراية

6 إذا كنا نعتبر نظام التربية والتكوين مشتلة المستقبل واهم استثمارات الدولة والمجتمع في المورد الأول ، الباقي والمتجدد وهو الإنسان المواطن ، فإن تقييم واقعها الراهن والنظر فيما ستكون عليه في مستهل الألفية القادمة ينبغي أن يكون مؤسسا على مقاربات علمية تتجنب الإنتصارية Triomphalisme) (والرضى السهل عن الذات مثلما تتحاشى التذايت (Subjectivisme وما يؤدي إليه من أفكار مسبقة وأحكام قطعية ، يروج لها منذ سنوات المتخصصون في صناعة شعارات الفشل والهزيمة لتحقير الذات الوطنية (devalorisation وتخفيض المعنويات) (Demoralisation فالجزائريون ليسوا أحسن الناس ولا أسوأهم ، لا الآن ، و لا من قبل ، إنهم مثل غيرهم من الناس ، وليس من المبالغة ولا الشوفينية أن نقول إن في طاقاتهم الكامنة والظاهرة وماضيهم القريب والبعيد وموقعهم الجيوسياسي ما يؤهلهم لأن يكونوا من بين أحسن الناس .

2) المتغيرات البعيدة المدى :

إذا رجعنا الفرضية السابقة عن

مؤهلات الجزائر واعتبرنا التوقع عملية مستمرة في التاريخ ، و أن التاريخ يختلف في سياقه العام وليس في جوهره ورهاناته (Enjeux) وهي على الدوام تحقيق القوة الذاتية والهيبة والمناعة (invulnerabilite) فإننا نجد في الماضي والحاضر متغيرات بعيدة المدى تسمى عند المختصين في الدراسات المستقبلية وحدات القياس والاستطلاع (Parameters) .

من بين تلك المتغيرات بعيدة المدى نذكر بإيجاز :

1 ـ مكاسب ثورة التحرير وفي مقدمتها إعادة تأسيس الجمهورية والشروع في بناء الدولة الوطنية البنت البكر لثورة نوفمبر 1954 . لا يسبق هذا النسب أية صفة أخرى ، وفي ميدان التربية والتكوين فقد حاولت الجمهورية إنجاز وعد الثورة بوجه عام ، فقد اعتبرت أن إحدى الأولويات العاجلة هي إنقاذ شعبنا من الأمية والتخلف المتراكم قبل وبعد الاحتلال الإجرامي لبلادنا ووضع الأسس لبناء مدرسة وطنية في توجهاتها ، ديمقراطية تفتح أبوابها لجميع أبناء الشعب وتعمل على ملاحقة التطور بإطارات ومسيرين من الجزائريين . لقد تحقق كل ذلك بنسب متفاوته ، بغض النظر عن الأشخاص والعهود ، ولكن الجزائر من البلدان القليلة في المنطقة التي يتولى فيها رجال ونساء مسؤوليات وطنية عليا ، سياسية واقتصادية وعسكرية تخرجوا من هذه المدرسة وهم ينتمون إلى أصول شعبية لا علاقة لها بطوائف الأعيان المغلقة والامتيازات الموروثة ، ونحن نتوقع أن يستمر هذا التوجه العام في المستقبل .

2 ـ أنجزت الجزائر خلال ثلث القرن الماضي حضيرة هائلة من الهياكل والمرافق البيداغوجية تكون اليوم شبكة متنامية الأطراف ، وهي تضمن تمدرس ربع سكان الجزائر ، أي أن واحدا من كل أربعة جزائريين موجود الآن على مقاعد الدراسة ، كما أن حوالي 65 ٪ من الأطفال الأقل من 17 سنة يحصلون على الوسائل البيداغوجية ومساعدات أخرى ، إما مجانا أو بأثمان رمزية ، للتقليل من التفاوت الطبقي وتحقيق مبدأ تساوي الفرص بين كل المواطنين ، بل إن مدارس الجزائر ومعاهدها المدنية والعسكرية فتحت أبوابها لتلاميذ وطلاب من بلدان صديقة وأخرى أقل صداقة ولم تعمل على الإطلاق على نشر إيديولوجية معينة أو تكوين لوبي يخدم مصالحا ، ونحن وإن كنا لا ندافع عن حصيلة الجزائر ومدرستها و لا نبحث عن متهم لتبرير النقائص فإنه من الضروري أن نشير إلى أن كل الباحثين الفرنسيين والإدارة الاستعمارية نفسها تثبت أن نسبة التمدرس في الجزائر سنة 1960 كانت تتراوح بين 10 و 12 ٪ .

3 ـ إن تعميم وتدعيم المدرسة الأساسية يبقى في توقعنا هدفا دائما للدولة الجزائرية بالنظر إلى وظائفها الهامة التي يتجه الإصلاح الحالي إلى إعادة صياغتها لتكون أكثر إجرائية ، وتتمثل تلك الوظائف وفق المنظور المستقبلي فيما يلي :

3 ـ 1- من الناحية الثقافية التجذر (Enracinement) في حقائق التاريخ الوطني في تواصله واستمراريته بلا انقطاع والاعتزاز بالخصوصيات الثقافية الجزائرية المشتركة والفرعية وتأكيد الانتماء الوطني ، الواحد في تنوعه ، والمتنوع في وحدته .

3 ـ 2- من الناحية التربوية ستكون المدرسة مخبرا كبيرا لإكتشاف المواهب والإستعدادات (Vocation والتدريب على فن الحياة de vivre) (وفق متطلبات عصر السرعة والدقة والإنضباط في الحياة العامة والخاصة وتنمية قدرات التلاميذ على التعلم الذاتي وممارسة المواطنة والحس النقدي والمحافظة على البيئة .

3 ـ 3 ـ من ناحية مضامين التكوين ، لا مفر من تجديد المعارف العلمية والتحكم أكثر فأكثر في التطبيقات التكنولوجية ، وتوجيه المواهب بناء على اختيارات دقيقة ، لتنمية استعدادها وتكوين نخبة ممن ينتجون في المستقبل العلم والتكنولوجية وهي أعلى قيمة مضافة (plus value) في النصف الأخير من هذا القرن ، و لا ينبغي أن يكون ذلك على حساب علوم الإنسان والمجتمع والفنون الجميلة ، لأن تخلفنا في هذا المجال لا يقل عن تخلفنا فيما يسمى التيكات الخمسة (les cinq tiques) وهي الأنفورماتيك (المعلوماتية) والبيوتكنيك والتليماتيك والإلكترونيك والبيروتيك (أي الإدارة والتسيير) .

3 ـ 4 ـ و من الناحية الإقتصادية ، لن أتحدث عن تكلفة التكوين ومستواه ومردوديته في الإنتاج بل أكتفي بمجال هام هو التكوين المهني الذي ينبغي أن يتطور بسرعة عن طريق التوجيه والتوعية بأهمية الإطارات المتوسطة في مجتمع ما يزال يعاف العمل اليدوي ويتوهم أن المكانة مرتبطة باليافة البيضاء (col blanc ، ولذلك ينبغي أن نحدث قنوات بين التعليم الأساسي و التكوين المهني و نتخلص من التوجيه عن طريق الفشل (orientation par) وإلا وجدنا أنفسنا في المدى القريب نمتلك جيشا من الضباط السامين بدون صف ضباط وجنود مدربين جيدا ، ويبدو أن التجربة الألمانية هي نموذج يستحق

الإهتمام ، وخاصة ما يتعلق بالعمل أثناء التعلم وإعادة التعليم والتكوين أثناء العمل .

4 ـ سوف يضع الحشد المدرسي المتزايد أعباء ثقيلة على كاهل الدولة والمجتمع ، فإذا افترضنا أن النمو الديمغرافي سيتراوح خلال العقد القادم بين نسبة 2.7 و 2.5 ٪ ، فإن عدد تلاميذ المدرسة الأساسية والتكوين المهني سيكون حوالي 8 مليون ونصف أما تلاميذ الثانويات فسيصل عددهم في نهاية العقد إلى 2 مليون ، فإذا أضفنا نصف مليون آخر من الشباب سيكونون في الجامعات والمعاهد العليا وقدرنا التأطير الإجمالي لمنظومة التربية والتكوين بحوالي 500.000 من المعلمين والأساتذة من بينهم 370.000 في التعليم الأساسي و 120.000 في التكوين المهني والتعليم الثانوي وحوالي 30.000 في المعاهد العليا والجامعات ومراكز البحث فإننا سنجد في نهاية العقد القادم أن ثلث السكان أي واحد من كل ثلاثة جزائريين (بدل واحد من كل أربعة حاليا) إما يكون أن يتكون في أحد مستويات منظومة التربية والتكوين .

5 ـ سوف تمثل شريحة العمر الأقل من عشرين سنة في عام 2010 حوالي 35 ٪ من مجموع السكان ، وذلك حسب تقرير لجنة الخبراء الذي تم تحضيره برئاسة الجمهورية سنة 1993 وعلى الرغم من التناقص البطئ في التزايد السكاني فإن هذه الشريحة هي المعنية مباشرة بالتربية والتكوين وبالنظر إلى انعاكسات الأزمة المفروضة على الجزائر من الداخل بالتخريب ، ومن الخارج بالتضييق ومحاولات الزعزعة والتشويه ، وبالنظر كذلك إلى الموارد الشحيحة المنتظرة في بداية الألفية القادمة ، فإنه من الضروري الإسراع بتطبيق سياسة حازمة وحوافز مقبولة اجتماعيا لتنظيم النسل والتخطيط العائلي . واعادة النظر في الإنتشار الحالي للسكان على التراب الوطني والحد على الأقل من تفاقم الإختلالات الخطيرة بين الشريط الساحلي بالمقارنة بالهضاب العليا والسهوب ، وبين الشمال بالمقارنة بالجنوب ، وذلك لأسباب اجتماعية اقتصادية ولعلاقة الإنتشار السكاني باستراتيجية الأمن والدفاع الوطني بمعناه الواسع .

6 ـ بناء على التقييم الحالي لأداء منظومة التربية والتكوين ومردودها الكمي والكيفي فإن المدرسة الأساسية ما بعد الإصلاح ستواجه نوعين من التحديات:

أولهما من داخلها ونشير إليه في النقاط التالية :

3) تحديات من داخل منظومة التربية والتكوين:

6 ـ 1 ـ تجديد المناهج وغربلة البرامج عن طريق تنشيط البحث في البداغوجية العامة والخاصة ، والإطلاع المستمر على التقنيات الجديدة في العالم ، ليس طبعا عن طريق الزيارات السياحية ، وإنما عن طريق النقد والمقارنة والرغبة في الإتقان .

6 ـ 2 ـ اكتشاف أساليب للتكوين المستمر المهني والعلمي بالنسبة لما يقل عن نصف الإطارات المعنية بالتعليم والتسيير أي حوالي 180.000 إطار وتشجيع الترقية الذاتية (mise a niveau) بحوافز مادية ومعنوية ومن أهمها نسبة النجاح المدرسي (وفق معايير دقيقة) بالنسبة لفصل واحد أو مدرسة أو ناحية من الوطن .

6 ـ 3 ـ إيجاد آليات بالاشتراك مع التكوين المهني للحد من التسرب المدرسي الذي سيصل إلى حوالي 300.000 شاب سنويا .

6 ـ 4 ـ رفع نسبة النجاح المستحق ، والإنتقال من النسبة الهزيلة حاليا والمقدرة بـ 1/4 تلاميذ المدرسة الأساسية و 1/10 تلاميذ الثانوي إلى نسبة 50 ٪ على الأقل في نهاية العقد القادم ، وبالنسبة للتعليم الثانوي

بكل فروعه فإن البكالوريا ينبغي أن لا تكون التأشيرة الوحيدة لمتابعة الدراسات العليا ويتطلب ذلك توثيق الصلة بعالم الشغل وإدماج التعليم والتكوين في منظور شامل للتنمية مركزها الموارد الإنسانية وليس العكس كما هو الحال الآن أي التكوين من أجل التكوين بعيدا عن الحاجات الحقيقية لإقتصاد ، هو الآن موضوع سلبي لعلميات التدويل (mondialisation) وليس شريكا فاعلا فيه .

6 ـ 5 ـ تدعيم البعد الثقافي للتربية وإعطاء أطفالنا إجابات بسيطة ومقنعة عن تساؤلات تتردد بانتظام حول من أنا ؟ من أنت ؟ من نحن ؟ في عصر تتجمع فيه قارات بأكملها وتقوده كتل كبرى لأغراض التوسع والهيمنة والنفوذ الإقتصادي والثقافي ، وتتجه قوى كبيرة إلى ما يسميه الفيلسوف " إيف ميشو " Yves) Michou) الهويات المرنة (les indentites flexibles) .

6 ـ 7 ـ انطلاقا من فكرة الهوية المرنة التي نعني بها هنا تنمية الخصوصية الثقافية بالاقتراب أكثر فأكثر من العالمية (universalite) سيتركز الاهتمام في العقد القادم ، على إثراء اللغة والثقافة العربية داخل وخارج المدرسة الأساسية بطريقتين :

6 ـ 7 ـ 1 ـ تجديد اللغة العربية وتطويرها والابتكار في إطار الأكاديمية الجزائرية للغة والثقافة العربية وذلك بهدف الوصول إلى ما يسمى اللغة الوسطى الغنية (Langue Mediane Standart) ذات الإستعمال الواسع والمشترك بين مختلف المستويات الثقافية .

6 ـ 7 ـ 2 ـ الاهتمام بالترجمة على الطريقة اليابانية لكل ما صدر ويصدر في العالم بكل اللغات ، في مجال العلوم والفنون والتكنولوجيا والآداب ، وذلك جنبا إلى جنب مع اللغة الأمازيغية وليس ضدها فلم تكون أي منهما أبدا ، وعبر التاريخ ضرة (epouse) للأخرى في هذه البلاد .

6 ـ 8 ـ كما نتوقع أن يطبق الإصلاح سياسة ذكية لإتقان اللغات الأخرى ، تخضع لمصالح الجزائر الجيوسياسية والإستراتيجية على المدى المتوسط والبعيد ، وليس لخدمة مصالح بلدان أخرى في الجزائر ، وفي رأينا هناك خمسة عائلات لغوية ينبغي أن تحضى بالأولوية على الترتيب التالي :

6 ـ 8 ـ 1 ـ العائلة اللغوية للقوس اللاتيني (Latin) وهي الفرنسية والإسبانية والإيطالية و البرتغالية.

6 ـ 8 ـ 2 ـ العائلة الأنغلوسكسونية - الجرمانية وهي الإنكليزية والألمانية .

6 ـ 8 ـ 3 ـ العائلة الإفريقية الوثيقة الصلة بالتراث الإسلامي والعربية وهي الولوف والسواحيلي .

6 ـ 8 ـ 4 ـ عائلة اللغات السلافية وفي مقدمتها الروسية

6 ـ 8 ـ 5 ـ العائلة الآسيوية وعلى الخصوص اليابانية والصينية .

من الواضح أن تعلم تلك اللغات يكون عن طريق اختيار الأولياء والتلاميذ ، ويخضع للخريطة المدرسية ، حسب الإمكانيات المتوفرة ، ولكن من الأفضل أن يبدأ تعليمها في المرحلة الثانية من المدرسة الأساسية لتصبح تخصصات في الجامعة وما بعد التدرج (Post graduation) .

6 ـ 9 ـ العناية بالبعد الروحي والجمالي في العملية التربوية والعمل على أن يكون من بين معلمي التربية الدينية أساتذة في الفيزياء والرياضيات وعلوم الطبيعة والاجتماع والنفس والتاريخ ومن المؤسف حقا أن هذه المادة تقدم في كثير من الأحيان عن طريق التلقين بسبب التخلف الكبير في الأبحاث الخاصة بالدين في أبعاده الروحية والإجتماعية والعقلانية على الرغم من أن الإسلام هو أحدث الديانات السماوية وأكثرها قربا من المنطق وطبيعة الكون والإنسان .

6 ـ 10 ـ والأخير من تلك التحديات وليس آخرها هو التصدي لطوفان الأمية الشبيهة بالسرطان في جسم الأمة فقد وصلت نسبتها سنة 1992 إلى 37 ٪ من السكان يزيد سنهم على العاشرة (تقرير رئاسة الجمهورية) ، ومن البديهي أنه لا يمكن لأي أمة أن تتقدم وتحقق مطالب الإنسجام والتضامن والسلم الاجتماعي إذا كان أكثر من ثلث المواطنين فريسة للأمية ، و قسم كبير منهم من الإناث . إن النشر الأفقي للتعليم سيساهم في المدى المتوسط والبعيد في اقتناع أغلبية المجتمع بأن الجزائر في حاجة إلى المشي على رجلين هما الرجل والمرأة وأن التساوي في حقوق وواجبات المواطنة هو واحد من شروط الانتقال من الجمود أو التباطؤ إلى السرعة في التطور والتكامل بين الأجيال بدل التفكك والصراع .

لا شك أن لهذه الآفة تأثير على المحيط المباشر للمدرسة وعلى أدائها نفسه فضلا على انعكاساتها السلبية على التشغيل للمدرسة وعلى أدائها نفسه فضلا عن انعكاساتها السلبية على التشغيل والتدريب المهني والأداء الاقتصادي والمستوى الثقافي للمجتمع بكامله ،

لذلك فإنه من المستعجل والجزائر تستعد للاحتفال في منتصف العقد القادم (نوفمبر 2004) باليوبيل الذهبي للثورة أي ذكراها الخمسينية وانتهاء عشد الغبن والتوحيش الكولونيالي (Ensauvagement) ، من المستعجل أن تجند بلادنا كل امكانياتها لوقف هذا الطوفان ، فما الفائدة في وجود نخبة صغيرة متفوقة وسط بحر راكد من الجهل والانحطاط الثقافي ؟ وماذا تستطيع أن تفعل لتسريع الحركية الكلية للمجتمع ؟ لقد أكد " فوكو " (Foucould) هذه الحقيقة في دراسته لأركيولوجيا المعرفة Archoelogie du savoir) (بقوله : إن التخلف . مثل الورم (Tumeur) يتضخم ويتزايد إذا كانت المعادلة على الترتيب التالي : سلطة ثروة علم ويزول ، أو على لا يتضخم إذا عادت المعادلة السابقة إلى وضعها الصحيح وهو : علم ثروة سلطة (Avoir) Pouvoir) .

4) تحديات من خارج منظومة التربية والتكوين:

7 أما التحديات الخارجية فهي تعني المدرسة باعتبارها كشافة المستقبل (Pioniere) وتشمل كل مؤسسات المجتمع المعنية بالتنظيم والتسيير والبحث العلمي ، نذكر من بين تلك التحديات :

7 1 بينما كانت المنطقة كلها ومن بين بلدانها الجزائر تغوص في التخلف وتتقهقر إلى الوراء وتردد بلا وعي من فوق المنابر كل يوم جمعة " أن كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة وأن كل ضلالة في النار " (أقول بلا وعي لأن الإسلام هو أعظم تجديد في تاريخ الإنسانية) وتتساقط الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات التوسع الصليبي الكولونيالي حدث ما يلي :

- تضاعفت المعرفة العلمية لأول مرة سنة 1750 . تضاعفت للمرة الثانية في نهاية القرن الماضي . زادت ثلاث مرات في نهاية الحرب العالمية . تطلبت عشر سنوات فقط لتتضاعف للمرة الرابعة ما بين 1960 و 1970 .

7 ـ 2 ـ قدر " ما ك لوهان " (Mac Lihan) التطور المذهل للمعرفة الإنسانية بالوحدة الزمنية بقوله : إن حجم ما أنتجه الإنسان من المعرفة والتكنولوجيا في مدة ثلاث سنوات فقط من نهاية هذا القرن تساوي 30 سنة مقارنة ببداية القرن ، وثلاثمائة سنة من عصر نيوتن وثلاثة آلاف سنة من عصر الكهوف ، وان ما ينبغي أن يتعلمه التلميذ في أية مادة من المنهج الدراسي يزيد ثماني مرات عما كان يتعلمه جده في العشرينيات من هذا القرن .

7 ـ 3 ـ تضاعف حجم الإنتاج التكنولوجي مليون مرة ما بين 1960 1980 .

7 ـ 4 ـ هناك 35.000 مجلة علمية متخصصة من بينها 6.200 مجلة تصدر في الولايات المتحدة تنشر في مجموعها حوالي 2 مليون دراسة أو تعريف باختراع جديد سنويا ، بمعدل ما بين 5.000 و 7.000 دراسة وبحث يوميا تمثل 20 مليون كلمة وحسب " ج . أنديريا " (J.Anderea) فإنه قد تراكم حتى 1985 حوالي 10 ملايير شكل طباعي مرقم في أوروبا والولايات المتحدة .

7 ـ 5 تتحكم الولايات المتحدة بواسطة 450 بنك وقاعدة للمعلومات والمعطيات في 90 ٪ من المعطيات العلمية والتكنولوجية الأكثر حداثة ، وتستخدم حضيرة من العقول الإلكترونية تزيد حوالي الثلث عما هو موجود في سائر أنحاء العالم .

7 ـ 6 تحول مركب الإعلام ، والإتصال إلى سلطة تكنولوجية سياسية قادرة على التبليغ عن بعد واتأثير من الداخل ، من التليفون المنقول إلى البارابول إلى الشبكة المعلوماتية (Inernet) إلى الأقمار الاصطناعية والمرابكب الفضائية التي تكشف باطن الأرض والبحار وأعماق البحار والمحيطات وتتجول ما بين الأرض والمريخ أصبحت كل مناطق العالم تحت العدسات لأغراض الاستكشاف والجوسسة .

8 ـ ومن بين المؤشرات الدالة على ما سيكون عليه العالم في مستهل الألفية القادمة :

8 ـ 1 ـ سيصل عدد سكان العالم خلال القرن القادم إلى عشرة مليارات ، بعد أن انتقل خلال القرن العشرين من مليار واحد إلى ستة ملايير ، سيكون 56 ٪ منهم

من القارة الأسيوية ومليار وستمائة مليون سيكونون في أوروبا وأمريكا.

8 ـ 2 ـ سيتضاعف عدد السواح من 500 مليون سائح إلى مليار سنة 2010 .

8 ـ 3 ـ يتوقع تقرير الأمم المتحدة عن سنة Globat) (out loock 2000 والمعهد الدولي بأمستردام أن أقل من 150 شركة متعددة الجنسيات سوف تحكم سيطرتها على الاقتصاد الدولي عن طريق التجمع في مركبات كبرى والانتشار في جنوب العالم (Delocalisation) أين توجد أسواق الاستهلاك واليد العاملة الرخيصة ، وهي تحرك في منتصف هذا العقد رأسمال يقدر بألف ومائة مليار دولار أي أكثر من 25 ٪ من الناتج العالمي الخام .

8 ـ 4 ـ سيتجه العالم إلى مزيد من العولمة من أعلى تحت ضغط الأحادية القطبية وغطاء الترابط المتبادل) (Interdependance ، وسوف تكون حسب مؤشراتها الحالية عولمة انتقائية واقصائية تصنف البشر إلى نوعين : أولهما : راقي وممتاز ، وثانيهما مجرد فضلات (Dechets) بشرية تنهب ثرواته ويحسب له فقط الحد الأدنى من السعرات الحرارية كما هو الحال الآن في إفريقيا ضحية المجاعات والأوبئة والانقلابات الكاريكاتورية .

5 الخلاصة :

هذه أمثلة قليلة من تحديات نهاية القرن وبداية الألفية القادمة التي تواجه منظومة التربية والتكوين والجزائر كلها أمة ودولة وجتمعا ، وإذا كنا نعتبر أن عصرنا هو عصر الدقة والسرعة والاستثمار الجيد للذكاء وقوة الإرادة السياسية فإن المدرسة الأساسية والحلقات التالية وخاصة التكوين المهني والبحث العلمي ينبغي ان تكون هي رهاننا الحقيقي على المستقبل و ليست رهينة (Otage) للصراعات الإيديولوجية. فمن علامات التخلف التي لا تخطيء كثرة الجدل اللفظي وقلة العمل الجدي تصدق هذه المقولة من سفسطة خطباء أثينا في عهد الإنحدار) (Declin إلى أيامنا هذه .

إننا لا نثق في التمنيات والوعود الطوباوية ، وخطابات الوعظ والتكالية (Fatalisme) ، لأن الألفية القادمة تنتظر منا ديناميكية جديدة هي مزيج من الخيال والطموح والواقعية ، ولذلك نتوقع أن يكون مستقبل المدرسة الجزائرية بعد الإصلاح أرقى من أمسها ويومها ، ومن المحتمل جدا أن تهدأ العاصفة وتزول حقبة الاضطراب المؤقت ويستأنف شعبنا ونخبه الوفية مسلكيته التاريخية Vocation historique) (وهي الدفاع عن حرية الوطن والمواطن وزرع التقدم والديمقراطية والمشاركة بفعالية في إثراء التراث الإنساني والحرص على تطبيق العدالة الاجتماعية و رعاية من ينتجون الثروة وهم المفكرون والعلماء المبتكرون في كل المجالات الذين سيتخرجون من المدرسة الجزائرية ، مدرسة المستقبل .

إن التقدم والحداثة الحقيقية لا تصنعها الشعارات وخطب مدح التقدم أو سب التخلف ولا القرارات والمراسيم الفوقية ، إنها تنشأ أساسا في نظام التربية والتكوين ، وتظهر نتائجها في تراكم المعرفة والتطبيقات التكنولوجية ، عن طريق البحث العلمي ، والترقية الثقافية لكل المجتمع .

من الإنصاف أن نثمن في نهاية هذه الورقة المجهود الذي قام به المجلس الأعلى للتربية لتنظيم حوار وتشاور واسع ، شارك فيه المعنيون والمختصون من ذوي الخبرة والتجربة وذلك على الرغم من قصر المدة والمصاعب التي تصاحب مرحلة التأسيس .

أيا كانت النظرة لنتائج ذلك المجهود وهي في رأينا جديرة بالإهتمام فإنه ينبغي النظر إلى سياسة الإصلاح على ضوء الاعتبارات التالية :

• لا يوجد نظام تربوي كامل ونهائي فناك جدلية دائمة بين متطلبات التغيير الاجتماعي وبين التطور المستمر في مضامين التكوين ووسائله وأهدافه .

• ينطلق الإصلاح من تحليل نقدي صارم ونزيه لحصيلة ينبغي وضعها في سياقها التاريخي ومحاكمتها حسب أهدافها المرحلية بعيدا عن الانطباعية والمزاجية والنزعة العدمية التي تبحث عن نقطة الصفر ، أو تدعى أن كل ما سبق هو لا شيء أو أسوأ شيء.

• ينبغي أن ينطلق الإصلاح من منظور إجمالي لنظام التربية والتكوين باعتباره سلسلة متصلة الحلقات تتبادل المدخلات inputs والمخرجات outputs

• لكي يتحاشى الإصلاحية الترقيعية (eclectisme) والإصلاحية الجزئية (reformette) أن يتصف بالمرونة ويضع سلما متدرجا للأهداف والوسائل ويقترح فرضيات للتعديل .

• إذا تأكد المشرفون من جدوى وفعالية مشروع الإصلاح بعد الفحص والتجريب الأولى فإنه من المفيد أن يستغرق تطبيقه دورة كاملة تسمح بالحكم على نتائجه وإعادة النظر في فلسفته ومحتوياته .

• ينبغي أن يسبق الإصلاح ويواكبه بحث تربوي منظم ، استشرافي ، متعدد الاختصاصات فالبحث العلمي في مجال التربية والتكوين هو الذي يمنع من الارتجالية والتجريبية (empirisme) العشوائية .

• ينبغي أن يقوم مشروع الإصلاح على نظرة توافقية بين فعاليات المجتمع السياسية و الاجتماعية والثقافية أشبه بمعاهدة بين أطراف تعمل بتضامن لبناء المستقبل انطلاقا من مشتلته الحقيقة وهي نظام التربية والتكوين .

وننهي هذه الورقة بثلاث اقتراحات ذات استراتيجي تشغل بالنا منذ مدة وهي :

1 _ إنشاء مركز للأبحاث المتخصصة في شؤون بلدان القوس اللاتيني (إيطاليا فرنسا إسبانيا البرتغال) وتشجيع العلماء والخبراء الجزائريين على العمل في هذا المركز ، فمن المعروف أن عددا كبيرا من الكفاءات الجزائرية من أعلى مستوى تعمل في مراكز البحث النشيطة في بلدان القوس اللاتيني وتساهم في تعريف مراكز ا لقرار الأرومتوسطية بطبيعة الإشكاليات المطروحة على بلادنا وآفاق الجزائر على المدى المتوسط والبعيد ، أما نحن فإننا لا نكاد نعرف شيئا أكثر مما يقوله الأروبيون عن أنفسهم ، بل إن بعض ما نتوهم أننا نعرفه عن أنفسنا قديما وحديثا هو من صنعهم .

2 _ إنشاء مركز للأبحاث في الشؤون الإفريقية ، إذ أن لنا في غرب ووسط القارة اهتمامات وعلاقات تاريخية لابد من إنعاشها ، والعمل على اختراق الطوق السياسي الاقتصادي الذي يحاصرها من كل الجهات .

3 _ إنشاء معهد متخصص في اللغة العربية وتراثها المغاربي الإسلامي واللغة والتراث الأمازيغي ومجالات التعاون في الثقافة والاقتصاد والخدمات والعلاقات الدولية ، ويتجه البحث في المشتركات والخصوصيات التي تجمع بين كل أبناء المنطقة ما بين البحر والصحراء الكبرى ، فالمستقبل للتجمعات الجهوية مهما كانت العوائق والصعوبات الموضوعية أو الناجمة عن تقديرات آنية وضغوط خارجية .

عن << دفاتر المجلس» العدد 05 المجلس الأعلى للتربية جوان 1998.